قراءة لرواية ((الأسود يليق بكِ))

م.م. حنان علي محسن

Abstract

And after; Art is the word winged can not be caught or identified and is ready to break out of any discussion of trying to compare the land from which, or the work that bears her name, like any subject scrubs forget that it's all an introvert in the folds of the final shape of the thing, and that this is the form of the formulation of this workmanship, let alone if the subject was a novel and created distinct from the other, has been granted all the possibilities of which are not creative shops. Emerged from studies of fascination severe this novel I've read several times, and I liked the study and discover all aspects of creativity in the this world created by novelist AhlamMosteghanemi, began from the text Gaii which led me to learn the secrets of the center Semantic speech novelist within the Kingdom of the characters, and then exposed to the elements of the narrative beginner element personal; novel because the novel characters and an introduction by the viewpoint of the characters, especially the developing and the main characters figure (halo adequate), which is the novelist herself Mrs. dreams Almottagnah behind (halo adequate) and of course to her character (Talal).

And soon to touch on other elements had an important presence in the MetnGaii, namely the element of the event and its relationship to time and how it was built internally, and component location vast, which is the successor or the theater, which is the display acts personalities, and make their roles as well as other techniques technique of dialogue and description the language novelist who did well in the display during the course of the events of the novel.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستهديه ، ونؤمن به ونتوكل عليه ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه المنتجبين وسلم تسليمًا كثيراً .

وبعد ؛ إنّ الفن كلمة مجّنحة لا يمكن الامساك بها أو تحديدها وهي على أتمّ استعداد للإفلات من أيّ نقاش يحاول أنّ يقرنها بالأرض التي تنطلق منها أو بالعمل الذي يحمل اسمها ، مثله كمثل أيّ موضوع يدعك تنسى أن الأمر كله منطوٍ في طيات الشكل النهائي للشيء ، وأن الشكل هذا هو من صياغة هذه الصنعة ، فما بالك لو كان الموضوع رواية وخلقًا متميزًا عن غيره ، وقد مُنحَ كل الامكانيات التي تُكون منها إبداعًا لا محال .

انبثقت دراستي من ولعي الشديد بهذه الرواية التي قرأتها عدة مرات ، وأحببتُ أتناولها بدراسة تكشف عن جوانب الإبداع داخل هذا العالم الذي خلقته الروائية أحلام مستغانمي فانطلقت من المتن الحكائي الذي ساقني لمعرفة اسرار المركز الدلالي للخطاب الروائي داخل مملكة الشخصيات ، ومن ثم تعرضتُ للعناصر السردية مبتدئةً بعنصر الشخصية ؛ لأن الرواية رواية شخصيات ومُقدمة من قبل وجهة نظر الشخصيات ، سيما الشخصيات النامية والرئيسة كشخصية (هالة الوافي) التي هي الروائية نفسها السيدة أحلام المتقنعة خلف (هالة الوافي) وطبعًا إلى جانبها شخصية (طلال) .

وما لبثتُ إلى أن أتعرض لعناصر أخرى كان لها وجود هام داخل المتن الحكائي ، ألا وهي عنصر الحدث وعلاقته بالزمن وكيف تم بناؤه تداخليًا ، وعنصر المكان الشاسع الذي يُعد الخليفة أو المسرح الذي يتم عليه عرض أفعال الشخصيات ، وتقديم أدوارها فضلًا عن تقنيات أخرى كتقنية الحوار والوصف واللغة الذين أحسنتْ الروائية في عرضهم أثناء سير أحداث روايتها.

ولشدة تعلقي بهذا العمل الإبداعي تناولتُ ما بين سطور الرواية ، أو تتبعتُ ما خلف الصفحات لأفتح لنفسي عالمًا آخر ، هو من وجهة نظري ما أرادتهُ الكاتبة ، فتتبعت سير الأحداث ووقفتُ على بعض العبارات التي تلفت أنتباه كل قارئ لهذه الرواية ولعالمها المحكم من جهة صانعتها.

مدخل:

رغم وجود مسحة من الجمالية اللافتة في رواية الكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي(الأسود يليق بك) ، وأظنُّها برعت في هذا المضمار، مُنذ روايتها الأولى(ذاكرة الجسد،1993)، إلا أن الممكن قوله لحظة الانتهاء من قراءة روايتها الصادرة حديثاً، فهي أفق تتجلى فيه أشعة الشمس التي تجعل منها زنبقة جميلة تروق لكل من يقترب منها ، وسنحاول في هذه الدراسة الموجزة التعرف على عالمها السردي التخيلي ، ونكتشف أسرارها التي شدت القراء ، فتلقفها مُحبيها من القاصي والداني ، وسننطلق في مسيرتنا من البنية الدلالية للخطاب الروائي داخل متنها الحكائي.

أولاً :-

المتن الحكائي :

تتشكل البنية الدلالية للخطاب السردي من نسيج الرؤى التي تصدر عنها ، بوصفها فواعل في بنية الخطاب ، أما تركيب الخطاب فهو نسيج العلاقات بين عناصره الفنية التي تُبين أن البنية الدلالية تتكون من فعالية الإرسال والتلقي بين الشخصيات من جهة وبين الراوي والمروى له من جهة ثانية ، فضلا عن عناصر تنشيط دلالية أخرى حددت أطر تلك البنية وهي المؤلف الضمني والمتلقي الضمني ، وتوجت فعالية الإنتاج الدلالي بطبقة أخيرة من العناصر المنتجة لدلالة الخطاب ، أعني بها المؤلف الواقعي والمتلقي الواقعي .

وكشفت هذه العلاقات عن أن البنية الدلالية تشكلت داخل الخطاب وتصدرت باتجاه متعاقب نحو متلقيه ، بيد أن الخطاب نفسه لا يعد سوى أثر أدبي قبل تلقيه وإعادة نتاجه ، فلا يمكن أن يستأنف الفعل الدلالي عمله إلا بحضور المتلقي الذي يقوم في حقيقة الأمر ، بتنشيط جميع عناصر الإنتاج الدلالي وضبط عملها[i].

ويفضي كل هذا إلى القول البنية الدلالية الكلية ، يبدأ تكوُّنها عندما تتضافر عوامل كثيرة تعمل معاً ، بعضها يصدر عن بنية الخطاب إلى الخارج وبعضها يصدر عن المتلقي إلى داخل بنية الخطاب ، وهي التي تحرك مركز الشبكة الدلالية الأصل ، وهي رؤى الشخصيات[ii].
ويبدو الأمرالتشكيل الدلالي للخطاب السردي أكثر تعقيدًا من تركيبه ، كونه يُنظم خلل انساق زمنية تحديد مستوياته وتضبط العلاقات بين عناصره الفنية : الزمان والمكان والشخصية والحدث .

إذن إنّ البنية الدلالية الأصل ، أي تلك التي تكون عمليات الأرسال والتلقي فيها رهينة بنية فنية ، تكون في اغلب الأحيان مراكز لاستقطاب دلالي كبير ، فلا يمكن أن تظل البنية الدلالية غير محددة ، فالاستقطاب الدلالي الفني ، وتفسيره على نحو مطابق لرؤيتها ، بل وتشكيل الاحداث والواقع وصياغة مواقف الشخصيات الاخرى ، بما تراه يأتلف ورؤيتها هي .

ويتبين ذلك واضحا في وجود التعارض بين الشخصيات الذي يعود الى التعارض في رؤاها وموقفها ، وهذا التعارض هو الذي ينتج ما يصطلح عليه (الصراع) الذي هو في جوهره صراع الرؤى في بنية الخطاب .

إنّ هذا الصراع هو نتيجة مباشرة من نتائج الاستقطاب الدلالي الذي نقصد به ظهور مراكز دلالية في الخطاب تقوم بوظيفتين مزدوجتين ، أولهما : انتاج سيل متواصل من الدلالات بوساطة رؤى الشخصيات ، وثانيهما تلقي السيول الدلالية التي تصدر عن المراكز الأخرى .

وغالبا ما تكون مراكز الاستقطاب الدلالية في الخطاب السردي ممثلة بشخصيات رئيسة ، ولا يشترط أن تكون الشخصيات هي تلك العناصر التي تتشكل بواسطة الاوصاف والمميزات والملامح العامة ، بل قد تكون ضمائر أو اشياء مثل الموسيقى والكتب .

ثانيًا :-

عناصر السرد :

في ضوء ما مر ، نحاول الاقتراب من رواية (الأسود يليق بك) للروائية أحلام مستغانمي .

تكشف الرواية عن مركزين دلاليين هما : البطلة (هالة) ، والبطل (طلال) ، والأحداث التي تجري بينهما ، التي تُبنى عليها الرواية برمتها .

حينما ندخل عتبة هذه الرواية نجد أنّ هناك شخصية مرهفة بالإحساس والمشاعر وهي بنت السرابع والعشرين ، موهوبة شجاعة متكلمة مثقفة لها حضور لافت للنظر ، ونجد بجوارها رجلًا كبيرَ السن متزناً عقليًا واعيًا ثقافيًا يملك زمام أموره ، يحصل على كل ما يريده بالإشارة ، متمكنًا معنوياً ومادياً من احتياجاته ، لا يفضي للنقص في حياته التي عاشها ، هو من الطبقة الأرستقراطية في المجتمع .

ان أولى العناصر السردية داخل عالم رواية (الأسود يليق بك)،الشخصية التي هي وفق المنظورالنظري تعرفُ بأنها ((كائن موهوب بصفات بشرية وملتزم بأحداث بشرية))[iii]

كما تعد الشخصية عنصرًا مهما من عناصر بناء الرواية لأنها تصور الواقع من خلال حركتها مع غيرها وتعد العنصر الأساسي الذي يضط لع بمهمة الأفعال السردية وتدفقها نحو نهايتها المحددة وهي الموضوع المركزي والمهم مبدئيا للفن ، و أن جوهر العمل الروائي يقوم على خلق الشخصيات المتخيلة ولان الشخصية في الرواية لا يمكن فصلها عن العالم الخيالي الذي ينتمي إليه البشر والأشياء .

وتُبنى الشخصية كما اشار الى ذلك فورستر على عنصرين اساسين ، الشخصية المسطحة وتسمى بالنمطية وهي التي تدور حول فكرة واحدة أو صفة واحدة ، والشخصية المسطحة حقيقة يمكن التعبير عنها بجملة واحدة لكونها تبقى على وتيرة واحدة ، أما شريرة وأما خيرة ، والشخصية النامية أو المستديرة وتسمى الدرامية ايضا وهي التي تثير الدهشة فينا وهي التي لا يمكن التعبير عنها بجملة واحدة [iv] .

ونلمح شخصيات أخرى لها حضور خافت بالنظر إلى (هالة) و(طلال) ، مثل والدة هالة وصديقتها نجلاء ، وزملاء الدراسة ، وزوجة طلال التي لا تظهر في أحداث الرواية ، وهذه كلها شخصيات مسطحة داخل البناء الروائي ، أما شخصية البطلين هالة وطلال فهما من الشخصيات النامية التي البستها الكاتبة ثوب الرواية وتُعد مركزاً دلالياً ، فهي الساردة والرواية تُبنى من خلال وجهة نظر هذه الشخصية ، أي الخالقة لعالم الرواية ،على الرغم من أنّها جزء من البنية الرمزية إلا أن مكونات البنية ، بل ونسيجها يتجلى من خلال رؤيتها [v].

إذن تهيمن هذه الشخصية على البناء الدلالي لهذه الرواية ، وتتبع الروائية النمط المتداخل في عرض الأحداث ، فتجعلنا نقابل الشخصية وجهًا لوجه ، وتتذلل كل الفواصل بين المؤلف والمتلقي وتكون الرواية كأنها حدث واقع أمامنا ونحن في صداه .وهذا هو العنصر الثاني الذي هو الحدث ((هو سلسلة من الوقائع المتصلة تتسم بالوحدة والدلالة وتتلاحق من خلال بداية ووسط ونهاية ، وفي مصطلح رولان بارت فإن الحدث هو مجموعة من الوظائف يحتلها العامل نفسه)) [vi]، والانساق في الحدث تعتمد على النسق التتابعي الذي يسرد الاحداث بشكل خطي تاريخي لا يختلف عن تسلسلها في متن الحكائي [vii]، والنسق التداخلي وفيه تسرد الاحداث بشكل متداخل زمنياً ودلالياً بحيث يتداخل بعضها مع البعض الآخر [viii] وهذا النسق الذي بَنتْ عليه الكاتبة روايتها كما اسلفت ، واعتمدت على تقنية الاسترجاع في عرض الاحداث ، هذا يقودنا الى العنصر الثالث الزمن الذي يشكل خطًا متواصلًا تتنازعه ثلاث مقولات ، هي الماضي والحاضر والمستقبل، واستخدمته الكاتبة بمهارة عالية إذ أنّنا عندما نقلب صفحات الرواية لا نجد ظهور عنصر الزم ن بوضوح ، إلاّ تقنية المنولوج الداخلي ، فتُفتتح بحدث قديم وتذكار هذا الحدث هو انطلاق شرارة

الرواية وانفتاح باب عالمها التخيلي ((لن يعترف حتّى لنفسه بأنّه خسرها . سيدّعي أنّها من خسرته ، وأنّه من أراد لهما فراقًا قاطعًا كضربة سيف ، فهو يفضّل على حضورها العابر غيابًا طويلًا ، وعلى المُتع الصغيرة ألمًا كبيرًا ، وعلى الانقطاع المتكرّر قطيعة حاسمة)) [ix].

وأهم تقنية استعملتها أحلام هي تقنية الاسترجاع في بناء أحداث الرواية ، أما طريقة عرض الحدث وتشابكه في الزمان فكان مُقنعًا بتقنية الحوار الذي يُعرف بأنه ((عرض دراماتيكي في طبيعته ، لتبادل شفاهي بين شخصين أو أكثر)) [x]، وكان هدفه عرض الأحداث ، فكل حدث تقريبًا في (الأسود يليق بك) قائم على الحوار بين البطلة والبطل ، وبين الشخصيات الأخرى داخل بنية الخطاب السردي ، انطلق وهلة الرواية والحوار الذي جمع بين صوتهما في بداية الرواية عبر التلفون .

((ألو ..
ردّ صوت رجل على الطرف الآخر :
أهلًا .
ساد بينهما للحظات صمت البدايات . قال فاتحاً باب الكلام :
سعيد بالحديث إليك ...
وجد نفسه يواصل :
كنت أستعجل هذه اللحظة .
ردّت بنبرة لا تخلو من الدعابة في إشارة إلى بطاقته السابقة :
ظننتك تملك كلّ الوقت!
أن أملك الوقت لا يعني أني أملك الصبر ...
علّقت بالدعابة نفسها :
أمّا أنا فطوّعتني الحياة .. لا أكثر صبرًا من الأسود !)) [xi]

تشدّ الروائية أحلام القراء لروايتها عن طريق عرض الأحداث عبر الحوار التي تعبر عن واقع العلاقة بين الشخصيتين مما يعزز في النص حالة الارتياب ونجحت في أخذ القارئ إلى عالم النص ، ليظل متردداً ، طامحاً إلى بلوغ حالة اليقين طوال حركة السرد وامتداده ، حتى ليمكن القول إن البراعة الفنية للروائية شكلت جانباً كبيراً من أسرار إحكام النص ويعود هذا إلى قدرة الروائية على الإمساك بخيط الموازنة فيما بين الضوء والعتمة ، والإبقاء على ذهن القارئ متأرجحاً بين الارتياب واليقين اللذين جسدا النص.هكذا ، فالسرد في هذه الرواية ، فلم تعتمد عليه

الكاتبة في عرض الأحداث ، فجاء عفو الخاطر ليجعل القارئ مشدوداً لما ستأتي به الأحداث القادمة . كما في المثال الآتي الذي تستعرض حالة خاصة بشخصية البطل و يشاهد حفل خاص بالبطلة

((أشعل غليونه وراح يتابع تسجيل الحفل .
عجب ، وهو يراها ترتجل تلك الكلمة ، أن يكون الإرهابيّون قد منعوها من الغناء . كان عليهم إصدار فتوى تحرّم عليها الكلام ، إنّها أخطر وهي تتكلّم ! هو يفضل كلامها . لو أنّها كانت تغنّي يوم رآها لأوّل مرّة على التلفزيون لربّما غيّر القناة ، ما أسره هو هذا العنفوان ، لعلّه سرّ شغف الناس بها أينما حلّت)) [xii] .

وبعد هذا السرد ينصرف ذهن القارئ إلى ما ستأتي به الأحداث داخل الرواية ، فيكون للسرد حلقة ربط بين الحوار والمشاهد التي ت تخلل الحوارات .
وتُستخدم في الرواية تقنيات أخرى وهي تحدد سرعة سير الأحداث أوما نطلق عليه إيقاع الأحداث الذي بُنيت عليه الرواية ، وقد استخدمت الرواية التقنيات بأسلوب رشيق وسلس .

فمن التقنيات الأخرى تقنية الوصف ، إذ تقول في ه مقطع وصف ((بدأت الفرقة العزف تمهيدًا لظهورها على المسرح ، ثم أطلّت كبجعة سوداء داخل ثوب أسود من الموسلين ، لكأنّها " ماريّا كالاس" في ثوب أوبّرالي ، لا يزيّنه إلاّ جيدها العاري وشعر أسود مرفوع إلى أعلى . أنّها الفتنة في بساطتها العصيّة)) [xiii] .

ووصولًا للعنصر الرابع المكانالروائي الذي يعني بالاصطلاح فإنه يمتد إلى مفهوم اوسع ، فهو الخلفية التي تحتوي الاحداث .ويعرفه جيرالد برنس بأنه ما تقّدم في الوقائع والمواقف [xiv] . كما أن المكان يمثل الخلفية التي تقع فيها أحداث الرواية ، والحيز الذي تتحرك فيه الشخصيات الانسانية ، واسلوب تقديم المكان هو الوصف [xv] .

اكتسب المكان اهميته عبر اندماجه بالعناصر الاخرى ، اندماجا لا سبيل الى فصله وتوصف الرواية بأنه ((بنية كلية لبنى داخلية)) [xvi] ، فالمكان هو بمثابة المرآة العاكسة للشخصية وعلي هذا الاساس فان وصف المكان يرتبط بوصف الشخصية وذلك لعلاقة الساكن بالمسكن ، فالمكان ((يحمل جزءاً من اخلاقية وافكار ووعي ساكنيه)) [xvii] .

تدور أحداث الرواية في اماكن عدة منه الجزائر ولبنان وبعض الدول الأوربية التي تسافر إليها البطلة (هالة) ، فيبدو أن الفضاء المكاني شاسع في الرواية وكل مكان فيه حدث معين يمس البطلة

(هالة) في الصميم من بيتها في الجزائر حين تفقد أباها وأخاها ، إلى سفرها لسوريا ثم لبنان ، وبعدها المسرح في القاهرة الذي غنت فيه لمتفرج واحد وهو البطل (طلال) ، وإلى المطار الذي كان فيه حدث هز كيان (هالة) ؛ ذلك لأن طلال يتواعد معها أن يلتقي بها في المطار لكنه يختفى بين الناس ولا يتسنى (لهالة) لقاؤه ، بعد لقائها الأول به في باريس ، فكل الأماكن بالنسبة لهالة ترمي بأحداث عاشتها وعاش معها المكان .

ومن أهم وسائل السرد بعد الوصف والحوار تأتي اللغة ففي الرواية لغة شعرية مرهفة بالأحاسيس مختلفة عن لغة الأعمال الأخرى ، ولاسيما الثلاثية التي سبقت هذه الرواية ، فهناك اللغة اصعب من لغة (الاسود يليق بكِ) ، وقد عُرف عن الكاتبة أحلام اختياراتها اللفظية المبهرة التي تمتزج بلغة الشعر وخصوصيتها غير العادية.

وعند تشخيص لغة الرواية نجدها ، تشخص السهل الممتنع ذلك لما يمتلك من تركيب خطابي وتركيب المتن الحكائي الذي يشكل ظاهرة ضمن نطاق عالم السرد التخيلي . فالرواية إضاءة للحياة ومن ممارسة القراءة والتلقي انشغلت بتشخيص آليات اشتغال اللغة الواصفة وتبنى على القراءة النصية المراهنة على التأويل ، فبعد اجتهاد المدرسة الشكلانية في ملاحقة البنية الشكلية اتجهت المدرسة التأويلية إلى فك ترميز اللغة لمحاصرة المضمون عبر الإيحاء ، بينما اتجه أصحاب حوارية الخطاب إلى الاشتغال على لغات الخطاب ، واستنفذت التداولية طاقتها في تأكيد أفعال الكلام وظروف استعماله في استنطاق الخطاب .

ولأن مستويات اللغة العربية ومنها العامية تعكس الانتماء للمجتمع البسيط فإن الكاتبة تبني الحوار الواقعي المتعدد لشخصيات الرواية عليها في أكثر من مقام سردي يضفي عليها خصوصية محلية نشم من خلالها رائحة الانتماء ، فتقول :

((نصيرة تسلّم عليك بزّاف .. طلبت منّي تلفونك واش نعطيهو لها ؟ بالمناسبة .. قالت لي باللّي مصطفى تزوّج من أستاذة جات جديدة للمدرسة وطلب نقلهم للتدريس في باتنة)) (xviii)

وتقول في حوار آخر:

((وهدى واش راهي ؟

_ هدى تقول حدّ دعَى عليها دعوة شرّ! يرحم باباك ، كاين واحد يروح يعمل في التلفزيون

والإرهابيين كلّ أسبوع يقتلون صحافي؟! يا خويا تحت الأضواء بزّاف .. " مضروبة عليها" .. خلّيها تموت تحت الأضواء!)) [xix] .

تبني أحلام مستغانمي الشكل الفني للرواية على التناص وتداخل الأجناس لأنها تتقن صناعة الكلمة الشعرية إذ ترتقي بلغة الكتابة الروائية إلى مستوى جمالي تبرهن فيه على إذابة الحدود الوهمية في صناعة الكلمة الأدبية تلك الكلمة الخالقة للتوازن الروحي والفكري في عالم لا يعترف إلا بالمادة والإنتاج المادي ، إنها تستحضر رموز الرواية والشعر في عصور الألق والتنوير، وبصمة الكلمة الجميلة لتكتب عن فنية الفن تذكر من رواسب ذاكرة قراءة كتب مكتبة أبيها "دوستويفسكيوميرابووبودلير" وغيرهم كثيرون من عالم الشعر والفن والرسم والموسيقى لتعلن عن مذهبها الفني ،وهو لا حدود بين الأجناس ، والفنون وحدها الرواية بمرونتها تستوعب الكل . هكذا وظفت مستويات عديدة للغة فحاورت شخوصها وحاورتنا بتجربة روائية مختلفة توسلت فيها بوسائل فنية لا تتقنها إلا قريحة المرأة وللمرأة أيضا لغاتها وبصمتها التجديدية للرواية.

فاللغة الواقعية في رواية (الأسود يليق بكِ) للكاتبة الجزائرية الرقيقة أحلام مستغانمي فتحت أفق اللغة على التأويل بلغة الرجل عن المرأة ، إذن فاللغة مشحونة بتوظيف مستويات اللغة الروائية مما يجعلها مدونة خصبة لمثل هذا التمثل الذي تصنف به أدبية الرواية المعاصرة.

ثالثا : –

نظرة على الرواية :

تروي الرواية قصة حب بين فتاة جزائرية معلمة يملؤها التحدي والكبرياء في خوض الحياة وبين رجل أعمال من الاثرياء الذين يملؤهم الغرور ،يقيم في البرازيل ويدير سلسلة من المطاعم في مختلف انحاء البلاد .

تنطلق شرارة الدراما الروائية عندما يراها تتكلم على شاشة التلفزيون في مقابلة تلفزيونية ، فشدته جرأتها وقوتها وشجاعتها وحضورها ، وقرر فجأة أن هذه التي شدته وشغلته ستكون له ، فهو لم يعتد الخسارة بل خلق ليربح ،لذلك يحاول أن يتابعها ويخلق لها اجواء سحرية علّها تكون له

ويسحرها كما سحرته ((لفرط انخطافه بها ، ما سمع نبضات قلبه الثلاث التي تسبق رفع الستار عن مسرح الحب ، معلنة دخول تلك الغريبة إلى حياته))[xx] ، رآها لأول مرة بفستان أسود جذاب انيق واحبها به ، فلم يكن سواده حداداً لأنها كانت تؤمن أن ((الحداد ليس في ما نرتديه بل في ما نراه))[xxi] فمن هنا ربطت الكاتبة الرواية برمتها بالعنوان وجاء (الاسود يليق بكِ) أي أنه كان يصرّ عليها في لقاءاتهم بعد ذلك أن ترتدي اللون الاسود لأنه يليق بها .

إذن هي امرأة قادمة من الجبال المليئة بالكبرياء ، فمنذ دخولها عالم الفن والموسيقى دخلت متحدية للموت وللإرهابيين الذين لم تكترث لتهديدهم ، كي تنازل القتلة بالغناء في الحفل الذي نظمه بعض المطربين في الذكرى الأولى لاغتيال والدها ، فشاركت بأغنية والدها الاحب إلى قلبه .

ولدت بينهما علاقة يحكمها التحدي هو بماله وسلطته وهي بذكائها وجمالها وعنفوان شبابها ، حاولت الكاتبة أن تختفي وراء بطلتها هالة تاركة الحديث لها أحيانا ، لكنها لم تستطيع أن تخفى التشابه بينهما ، فهناك شبه كبير بين هالة وأحلام .

تنحرف الكاتبة في روايتها وتخرج عن الخط الرومانسي ويسوقها الحديث عن الواقع الذي يعيشه ابناء الوطن العربي ولا سيما حركة الربيع العربي إذ نراها تتعاطف مع الانسان الثائر الذي خرج ينادد بالظلم فكان مصيره القتل . وهي دائما تبدي أسفها على عالم الصمت أمام قتل الاطفال والكبار ، وتأتي ذاكرة أحداث حماة المعروفة والتي حدثت فعلا في الثمانينات داخل المتن الحكائي للرواية ، وقد عانى منها السوريون كثيرًا حيث تقول ((لقد عاشت أمها الفاجعة نفسها في سنة 1982 يوم غادرت وهي صبية مع والدتها وإخوتها حماة ، لتقيم لدى أخوالها في حلب ، ما استطاعوا العيش في بيت ذبح فيه والدهم ، وهم مختبئون تحت الاسرّة . سمعوا صوته وهو يستجدي قتلته ، ثم شهقة موته وصوت ارتطام جسده بالأرض ، عندما غادروا مخابئهم بعد وقت ، كان أرضا وسط بركة دم ، رأسه شبه مفصول عن جسده ، ولحيته مخضبة بدمه . كانت لحيته هي شبهته ، فقد دخل الجيش إلى حماة لينظفها من الإسلاميين ، فمحاها من الوجود))[xxii] .

لتتشابه الاحداث بعد ذلك بين الرواية وبين الواقع نفسه ، فوالدة البطلة هالة في الرواية حين تصر على خروجها من الجزائر كانت تريد حمايتها من موت ينتظرها ، فوجع الوطن وجراحه لا يغيب عنها في كل رواياتها وهنا في هذه الرواية عندما تقوم عمة هالة بزيارتها لها ولامها توقظ الكثير من المواجع وتعيدها للماضي، والوجع الجديد ينسى الوجع الذي قبله ، كانت أمها تجد في هم العراق ما ينسيها همها ، فجل وقتها تقضيه أمام الفضائيات الاخبارية لمتابعة مسلسل الغزو

الاميركي وسقوط بغداد ،وبذلك تحدد الروائية زمن الرواية . فبطلة الرواية تذكر أن أمها دعتها على عجل لمشاهدة فتاة تعرفها وهي كشخصية ثانوية جاءت بها الروائية وهي شخصية (هدى) وذكرتها مرتين فقط مع شخصيتين ثانويتين ، وكانت تتحدث في تقرير لها على قناة الجزيرة الاخبارية عن سجن أبو غريب ، وفضيحة تعذيب الجيش الاميركي للأسرى العراقيين.

في الرواية يختلط الهم العام مع الهم الشخصي ، فهالة صاحبة القضية ترى في قصة الحب فرصة للحياة وفرصة لتنأى بنفسها عن الهموم السياسية اليومية، هي تقبل بوهم الحب على عدمه، ولذلك قبل أن تقرر نسيان الحبيب كانت تنتظر أن يخرج من صمته لتفهم سبب فراقهما، حتى فقدت الرغبة في البحث عن تفسير لذلكتدريجيًا ماعاد لها رغبة في البحث عن تفسير لصمته.

لا أحد يبحث عن مبرر لصمت الموتى فهم يموتون ولهذا يصمتون ، وهو في كل يوم لا يهاتفها فيه يموت أكثر، مع كل نشرة أخبار تتوهم أنه أحد الذين يسقطون في العراق أفواجًا ضحايا الموت العبثي. كلما فكرت في موت الآخرين صغر موته، وكلما ضجت الانباء بأنين الابرياء احتقرت غطرسة صمته ، لتكون قناعتها بالنهاية أن فراقهما حقيقة يجب أن تتقبلها كما هي ولو كانت بدون سبب واضح عندما يفترق اثنان لا يكون آخر شجار بينهما هو سبب الفراق والحقيقة يكتشفانها لا حقًا بين الحطام، فالزلزال لا يدمر إلا القلوب المتصدعة الجدران والآيلةللانهيار

تكتب أحلام روايتها على إيقاع موسيقي وشعري ، فعباراتها تبدو كأنها مقاطع شعرية ، وموسيقاها حاضرة بكل أشكالها وبتأثير عال. الموسيق ىمرشدها الروحي ومخلصها وغذاؤها ، حتى أنّها عنونت أحد مقاطع الرواية بمقولة لنيتشه ((الموسيقى ألغت احتمال أن تكون الحياة غلطة)).

من الموسيقى استمدت شجاعتها لتلبي دعوة الحب وتفتح قلبها وترقص للحياة، وعلى أنغام الدانوب الازرق رقصت أجمل رقصات الحب معه، والحان رقصة المولوية أبكتها يوم حضرت حفلة لهم ، فترى بتلك الرقصة ما يترجم حزنها وهي تتعافى من الحب، فليس ما هو أقدر من الموسيقى على ترجمة الاحاسيس والدخول إلى أعماق ، كتبت على غلاف الرواية ((ما من قصة حب إلا وتبدأ بحركة موسيقية، قائد الاوركسترا فيها ليس قلبك، إنما القدر الذي يخفي عنكعصاه ، بها يقودك نحو سلم موسيقي لا درج له، مادمت لا تمتلك من سمفونية العمر لامفتاح صول ، ولا القفلة الموسيقية ، الموسيقى لا تمهلك، إنها تمضي بك سراعا كما الحياة، جدولا طربًا، أو شلالًا هادرًا

يلقي بك إلى المصب. تدور بك كفالس محموم، على إيقاعه تبدأ قصص الحب.وتنتهي حاذر أن تغادر حلبة الرقص كي لا تغادرك الحياة.لا تكترث للنغمات التي تتساقط من صولفيج حياتك، فما هي إلا نوتات)).

وبتشويق أدبي لافت كانت تنتقل من جزء لآخر ومن حركة إلى أخرى ،فالرواية اربعة حركات، وكأنها نوتة مضبوطة ،لكل جزء عنوان لا تترك بينها فراغات بيضاء، فهي تريد ان تقول الكثير، وكل ما يدور في عقلها من أفكار حول هذا العالم العربي المتخبط ، لا تريد ان تترك بياضاً فهي لا تحب الاسرار، ولا تحب الغموض ، ليس لديها أسرار وليس لديها ما تخبئه ((على عكسه، لم يكن في حياتها سر لتحميه، أو مكسب لتخاف عليه. ما تخافه هو أن يخلط بعد الآن بينها وبين إناث الشهوة، وصائدات الثروة. أن يكون أساء الظن بها مذ رآها على المسرح تحتضن تلك الباقة الحمراء وتتنازل عن باقته))[xxiii] .

بدأت الكاتبة من النهاية وكأنها تقدم فيلماً سينمائيا بطريقة الخطف خلفًا، فالعاشقين منفصلين، تصفه قائلة((كبيانو أنيق مغلق على موسيقاه، منغلق على سره لن يعترف حتى لنفسه بأنه خسرها، سيدعي أنها من خسرته)) [xxiv]وبلغة أدبية جميلة وعبارات دقيقة مفعمة بالحكمة والفلسفة تأسر القارئ ((كما يأكل القط صغاره، وتأكل الثورة أبناءها، يأكل الحب عشاقه)) [xxv]وأحيانا نضطر لقراءة الجملة أكثر من مرة للتأمل بها ، أو ليست الحياة أنثى، في كل ما تعطيك تسلبك ما هو أغلىأوعندما تقول:((كل تذكرة سفر هي ورقة يانصيب، تشتريها ولا تدري ماذا باعك القدر، رقم الرحلة،رقم البوابة ،رقم مقعدك ،تاريخ سفرك ، ماهي إلا أرقام تلعب فيها المصادفة بأقدارك يمكن لرحلة لم تحسب لها حسابا أن تغير حياتك أو تودي بها، أن تفتح لك الابواب أو توصدها، أن تعود منها غانما أو مفلسا عاشقا أو مفارقا)) [xxvi].

وتبقى الذكريات الكنز الحقيقي رغم مرارتها، فهي امرأة مسكونة بالذكريات وهذا بالنسبة لها ثراء حقيقي حيث أثرى النساء ليست التي تنام متوسدةممتلكاتها، بل من توسد ذكرياتها ، فالنسيان صعب ((كيف لامرأة أن تنسى رجلا آسرا ومدمرا إلى هذا الحد)) [xxvii] .

ولكن الاصعب أن تكون امرأة بلا ذكريات ، وعليها فقط أن تتعافى لقد غادرته كبيرة وفي هذا أيضا عزاء لها ،كانت ماتزال تمتلك الكبرياء والشرف ، فهي من حيث جاءت، تولد النساء جبالا

،أما الرجال، فيولدون مجرد رجال ، وكان عليها ان تستجيب للدعوة التي جاءتها من صديق جزائري لتحيي حفلا في العراق، فبقبولها تعود للحياة والسعادة والنجاح، مستفيدة من الدرس الاوحد الذي علمها إياه وهوالاخلاص للحياة فقط .

وعلى المسرح عندما أطلت من جديد لجمهورها بثوب لازوردي وليس أسودا تقصدت إرسال رسالة له ، هو يراها أنها تعافت منه ولم تعد أسيرة له ولحبه، لأنها كانت تعرف في قرارة نفسها ، وهو يمجد سوادها، كان يريد استعبادها، لتكتشف بعد ذلك أن السعادة أن تملك مشروعا. أما العافية فهي أن تضحك من القلب أخيرًا ، وكان يخطر في بالها انه ربما هو كان يفضل لو خانته مع رجل على أن تخونه مع النجاح ، وبصوتها تحررت من ألمها وحبها عندما اطلت على مسرحها في العراق تغني بحرية للعراق الموجوع، وللناس جميعا عداه. ليس ثوبها بل صوتها هو من يأخذ بالثأر، من ذلك الحفل الذي أجبرها فيه يوما على ألا تغني لسواه ، ومجرد ان اطلت على المسرح اختفى طيفه من حياتها، وكانت حرة بثوبها وبصوتها ((صوتها الليلة يغني لحريتها. يصدح احتفاء بها، صوتها الليلة لا يحب سواها. لأول مرة تقع في حب نفسها)) [xxviii].

وبعد أن تحررت وعادت للحياة والنجاح والسعادة والعافية واكتشاف الحقيقة التي لا يمكن أن تغيبها أو تستسلم لنوتة فلتت أو شذت ، حقيقة أن الحب والموسيقى كينونة أساسية لوجودنا، تنهي روايتها

((أيتها الحياة،
دعي كمنجاتك تطيل عزفها .. وهاتي يدك..
لمثل هذا الحزن الباذخ بهجة..راقصيني)) [xxix]

وكأنها بعد ان تعافت من الالم في حبها أرادت [xxx]أن تقول أنها لم تندم على الحب ، وهي مستعدة للحب والرقص من جديد ، وهذه هي الحياة ، وربما هذا ما ارادته من روايتها (نسيان كوم) ، عندما وجهت نصيحة لكل من يقارب الحب أن يكون مستعدا لألمه ولعذابه وللشفاء من جديد ، والعودة له من جديد ، فالحياة لا يمكن أن تكون جميلة دون حب، ومرة أخرى كن مستعدًا للحب .

قراءة لرواية ((الأسود يليق بكِ))

م.م. حنان علي محسن

الخلاصة :

منحت الرواية الكثير من المساحة الروائية، بقدر ما كانت غواية الكتابة تتم من خلاله، لنتفاجأ كيف تحرَّرت منه الشخصية المحورية في الرواية (هالة وافي)، وقد قاربت بين همومعربية، موحية إلى مدى قدرة الروائية على التنقل السريع من جهة إلى أخرى، وكيفية مكاشفة خدع الذكورة في رجل متباهٍ بنفسه، استسلمت له طويلًا، ثم وضعت حدًالسطوته خيرًا، هنا على القارئ أن يصدّق هذه اللعبة، أي حالة تزييف النص الروائي، بافتعال مشاهد شبقية أو استهوائية هنا وهناك ، فالكاتبة متمكنة من نصها بصورة محكمة وهذا ما يلاحظ مُنذ الوهلة الأولى لرواية ، وأختم دراستي في السطور التي تناولت المستوى اللغوي لهذه الرواية الرقيقة التي امتلكت من المقومات ما يجعلها باقة عطرة بين يديي قرّائها الكرام .

الهوامش :

[i]) ينظر : تحليل النصوص الأدبية (قراءات نقدية في السرد والشعر) ، عبد الله إبراهيم وصالح هويدي ، ص 103.

[ii]) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

[iii]) المصطلح السردي (معجم المصطلحات) ، جيرالد بريس ، ص 42.

[iv]) أركان الرواية ، أي .م. فورستر ، ترجمة كمال جاد ، ص 83.

[v]) ينظر : تحليل النصوص الأدبية ص 107.

[vi]) المصطلح السردي ، جيرالد برنس ص 19 .

[vii]) الملحمية في الرواية العربية المعاصرة ، سعد العتابي ص 177.

[viii]) ينظر : المصدر نفسه ، والصفحة نفسها.

[ix]) الأسود يليق بكِ ، أحلام مستغانمي ،ص 11.

[x]) المصطلح السردي ،ص 59 .

[xi]) الأسود يليق بكِ ،ص 48 .

[xii]) المصدر السابق ،ص 84 .

[xiii]) المصدر السابق ، ص107.

[xiv]) ينظر : المصطلح السردي ،ص 214.

[xv]) ينظر : بناء الرواية ، سيزا قاسم ،ص 76.

[xvi])الخطئية والتكفير ، عبد الله الغذامي ، ص9.

[xvii]) الرواية والمكان ، ياسين النصير ،ص 17.

[xviii]) الأسود يليق بكِ ، ص24.

[xix]) المصدر نفسه ،ص 94.

[xx])المصدر نفسه ، ص14.

[xxi])المصدر نفسه ، ص16.

[xxii]) المصدر نفسه ، ص194.

[xxiii])المصدر نفسه ،ص 129.

[xxiv])المصدر نفسه ،ص 11.

[xxv])المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

[xxvi]) المصدر نفسه ،ص 289.

[xxvii])المصدر نفسه ،ص 223.

[xxviii])المصدر نفسه ،ص 330.

[xxix])المصدر نفسه ،ص 331.

المصادر :

الرواية : الأسود يليق بكِ ، أحلام مستغانمي ، دار نوفل ، بيروت ، 2012.

1 -أركان الرواية ، أ.م. فورستر ، ترجمة كمال جهاد ، دار الكرنك للنشر ، القاهرة ، 1960 .

2 -بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ) ، سيزا قاسم ، الهيئة المصرية العامة للكتب ، 1984.

3 -تحليل النصوص الأدبية (قراءات نقدية في السرد والشعر) ، عبد الله إبراهيم ، صالح هويدي ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، طرابلس ، ط1، 1998.

4 -الخطيئة والتكفير (من البنيوية إلى التشريحية ، قراءة نقدية لنموذج انساني معاصر النادي الأدبي الثقافي) ، عبد الله الغذامي ، الرباط ، 1985.

5 -الرواية والمكان ، ياسين النصير ، دار الشؤون الثقافية العامة ، سلسلة الموسوعة الصغيرة ، العدد 57، بغداد ، 1980.

6 -المصطلح السردي (معجم مصطلحات) ، جيرالد برنس ، ترجمة عابد خازندار ، المشروع القومي للترجمة ، 2003.

7 -الملحمية في الرواية العربية المعاصرة ، سعد العتابي ، دار الشؤون القافية العامة ، بغداد ، 2001.